

كتاب من أعلام تلمسان لمحمد مرتاض - قراءة فنية وتاريخية -

حران رحيمة
جامعة تلمسان

إنَّ الأمل يحيط بنا ونحن نعكف على تقديم هذا العرض الموجز وهو عبارة عن قراءة فنية وتاريخية لأعلام تلمسان للدكتور الفاضل محمد مرتاض.

فكان حرصنا على أن نفتح أمام الكل نافذة الرؤية التاريخية لندرس ونتأمل ونحلل تلك الأحداث الحية التي تمثل حقبة حافلة من تاريخ المغرب العربي بإمعان وبصيرة لهؤلاء الرجال من أمثال المرازقة والعقبانيين وأبناء الإمام وابن خميس وابن مريم والشريف التلمساني و التنسي وغيرهم..

فكان صدور هذا الكتاب ليس لتسليط الأضواء الكاشفة على الماضي فقط بل هو يتوخى بلورة الإيجابيات التالية :

ترسيخ الانتماء الوطني والتفاعل مع مقومات هذا الانتماء.

التعرف على الجوانب الايجابية والسلبية في حياة الأمم ، والاستفادة من هذه التجارب العملية في التفاعل الجماعي مع الحاضر والمستقبل وبالتالي . إدراك وفهم سير عملية التطور التاريخي التي هي إحدى الحقائق المسلم بها والتي هي قدر الإنسانية جمعاء.

وأنت تعيش تاريخ تلمسان العريق في رؤية ذهنية للماضي البعيد والقريب، ستدرك حتما إحدى النتائج الحتمية التي لا تتغير مع تعاقب الأزمنة، ألا وهي "دور الشعوب في صنع التاريخ".

فخطوط التاريخ العريضة التي تشكل فواصل حاسمة في حياة المجتمع البشري، تكتب بأيدي الشعوب ويمداد ممتزج فيه العرق بالدم. وما دعا الباحث في البحث عن أعلام تلمسان، هو التجاهل الفظيع لرجال كافحوا طويلا وأدوا دورا رياديا في الخمسية الحجرية بخاصة، وبعد الفحص والانغماس في لج القضايا، استطاع المؤلف أن يتوصل إلى إحصاء أكثر من مائة عَلم تلمساني (من حيث النشأة، الوفاة أو الهجرة). فهذا السجل التاريخي عني بأدباء مرموقين، وبشعراء نوابغ، وبفقهاء موسوعيين.

- أما المتصفح المتتبع في هذا السجل أو المعجم التراثي الأصيل هو المتصفح التاريخي أو كما ورد على قول الكاتب (الترتيب التاريخي). أما الطريقة المتبعة فهي:
- ولادة الأعلام (العلم) زمانا ومكانا.
- النشأة - الدراسة - الشيوخ الذين كان لهم الفضل في تكوينه
- تلامذته
- وفاته
- آثاره
- آراء الآخرين فيه
- نماذج من خطابه
- مقارنة تحليلية لخطابه غالبا.

والجدير تسجيله أن رجال الفكر والثقافة قد تكاثروا في القرن الثامن الهجري، ولكن الأمر أقل في القرنين السادس والسابع الهجريين، ثم يلاحظ تراجع هؤلاء العلماء في القرن التاسع الهجري. أما عن الفترة الزمنية التي غطتها لدراسة فقد تركزت على الخمسية الهجرية الثانية وما بعدها بقليل لأن الخمسية الهجرية الأولى كما يجسده قول الدكتور مرتاض محمد: " لم يظهر فيها أعلام تلمسانيون في مجالات الفكر والثقافة ظهورا بارزا".

ولقد كانت مدينة الفن والتاريخ والعلم والحضارة تضم علماء كانوا متعددي التخصص والاتجاه، فهم في معظمهم فقهاء شعراء، فلاسفة أدباء، ومؤرخون ومدرسون وقضاة ومتصوفون وغيرهم كثير.

ويؤكد المؤلف كذلك في هذا الباب بأن " هناك أعلاما علماء يجب أن توليهم براجمنا المدرسية ولثانوية والجامعية عناية خاصة من أمثال "الشريف التلمساني" (792هـ) الذي يعد مرآة زمانه وموسوعة عصره، ومفخرة الجزائر، فقد كان عالم فقه ودين، وكان أدبيا وشاعرا ولغويا ومفتيا وأصوليا. وأما عن تلامذته الذين نهلوا من علمه الكثير من علوم اللغة والأدب والدين والبلاغة والنقد من أمثال ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة 842هـ والذي كان قد ألف الكثير من المؤلفات القيمة: "تفسير سورة الإخلاص" و "شرح صحيح البخاري" و "إظهار صدق المودة في شرح البردة".

ولقد ذكر الكاتب شخصية أخرى كان لها الأثر العظيم على التصوف الديني وهي شخصية الحسن بن مخلوف الملقب بأبركان والمتوفى سنة 708هـ ولم يكن له الحظ أن يدرج اسمه في قائمة علماء التصوف في القرنين السابع والثامن الهجريين.

أما عن العلماء الأعلام الذين حظي بهم هذا المعجم التاريخي، إسم ابن مريم التلمساني صاحب كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان".
فاتسم إذا القرن الثامن الهجري بكتاب رسائل فنية، ولاسيما الديوانية من مثل يحيى ابن خلدون (780هـ) والذي يشهد على قيمة أدبه وسلاسة أسلوبه كتابه الشهير "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد".

أما القرن التاسع فقد حفل بشخصيات متمثلة في رائد الشعر الكبير محمد التنسي (899هـ) والذي كان معظم شعره مدحا للزيانيين حيث كانت تلمسان في تلك الآونة عاصمة المغرب الأوسط ما يقارب لثلاثة قرون حيث ازدهرت فيها الحضارة وأصبحت من أعظم العواصم الإسلامية في تلك العصور الذهبية، فقلما يذهب عالم أو أديب من المغرب إلى المشرق أو من المشرق إلى المغرب ولا يستفيد منها، وكان في تلمسان من رجال العلم أو الفكر من تتيه بهم إعجابا على عواصم العلم بالمشرق كابن خميس وابن الإمام وغيرهم كثير..
"إن تلمسان رمزت بأرفع مستوى إلى مدينة المغرب الأوسط القديمة هذه أنها تحوي القسط الأوفر من تراث بلاد الجزائر الآثاري الإسلامي.
ومن المقتطفات لهؤلاء الأعلام الذين فرضوا التطور الحضاري عبر الأزمنة قول: - أبو مدين: شعيب بن حسين الأنصاري (520هـ/1126م): "أسماء الله تعالى بها تعلق وتخلق وتحقق". "لا طريق أوصل إلى الحق من متابع الرسول (ص) في أحكامه"

وله أيضا في الشعر:

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها كأنكم في بقاع الأرض أمطار
وتشتهي العين فيكم منظرا حسنا كأنكم في عيون الناس أزهار

يحيى بن خلدون مادحا النبي (ص):

من لميلاده بمكة ضاءت من فرى قيصر جميع الضواحي
من رقى في السماء سبعا طباقا ورأت آي ربه في اتضاح
إننا حسبنا الصلاة عليه وهي الفوز آية استفتاح

كما قلت سابقا إن الكلام الكثير على مجد تلمسان يؤدي إلى الشك أحيانا، بل أن نشر الحقيقة يقال بأنها مبالغة، لكن وأنت تتأمل صفحات هذا الكتاب الذي يعتبر معجما حقيقيا لأعلام تلمسان لا شك أنك تكون قد استوعبت مسيرة الكفاح الطويلة التي ساروا عليها عبر التاريخ.

وقد تناول أيضا بحثا وتحليلا سيرة بضعة وثلاثين علما من أعلام تلمسان الذين برزوا في شتى المجالات الأدبية والنقدية والشعرية والبلاغية والفقهية.